فلسفة التربية الحقة (*)

﴿ بقلم حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده الشهير ﴾

وهي رسالة نقلها عن درس للاستاذ العلامة الفيلسوف الشيخ جمال الدين الافغاني الحسيني رحمه الله كان ألقاه على طلبته الافاضل عند ما كان يدرس كتاب الاشارات للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا وجعل ذلك الموضوع فاتحة تدريسه. قال حفظه الله

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلية في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقيها غلبة تقضي بظهور بعض خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحي مايسمى بالمزاج المعتدل الحامل لروح الحياة فان غلب أحد العناصر على سائرها واضمحلت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم

وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ماسواه منها كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهى الى اليبس نذير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويعاد به المزاج الى حالة

(*) فاتحة العدد السابع والثلاثين الصادر في يوم السبت ١٩ رجب سنة ١٣١٦

الاعتدال ان خرج عنها لتم حكمة الله في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الازلية .فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لابد منه في تربية النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وماذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الاهوية ومنافعها ويقفون بتجاربهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى يحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها

ولن يكون الطبيب طبيبا يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها ويميز نافعها من ضارها ، وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها وما يلائم كل واحد على حسبه، وخبيرا بعلل الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف وتاريخها من قدم وحدوث حتى يعالج كلا بما يليق به،فان جهل من ذلك شيئا كان فقده خيرا من وجوده ، فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ بجهله يستعمل من الادوية ماعساه يهيج المرض، ويعين من الاغذية مايساعده على قسوته فيفضي ذلك الى هلاك المريض وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومته الطبيعية لولا مساعدة الجاهل وعونه ، وكما يلزم للطبيب أن يكون عالما بجميع ماقدمنا يجب ان يكون شفيقا رحيما صادقا أمينا، لايكون قصارى عمله ماينالـه من جعل المعالجة فانه ان كان قاسيا عديم الرأفة أو كان خائنا فلربما صار آلة في أيدي أعداء المريض يستعملونه لهلاكه بالقائه السم في الادوية مثلا أو إهماله في العلاج بما يقدمون

اليه من العرض الفاني ، وكذلك ان قصرهما على ماينالانه من الدينار والدرهم فانه ان كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض مادام يوفي أجر عمله فان هلك فقد نال مايزيد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فعدمه ايضا خير من وجوده

وكما أن روح الحياة البدني إنما يستقر حين تجتمع أصول متضاربة ينشأ من تغالبها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى — كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن بيت سعادة الانسان وعليها مدار حياته الفاضلة ، فان تغلب أحد الخلقين على الاخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات شقيا سيئ الحال وسقط في مهواة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك

ألا ترى ان النفس الانسانية لابد لها من خلق الجراءة وخلق المخافة وهما متضادان ؟ ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع تتحقق فضيلة الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعا ، وكانت حياته على خطر يتهدده في جميع أوقاته . ولو أن الجراءة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها كانت تهورا وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوي الهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه . وكذلك لا بد لها من خلق الامساك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء والبذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا ، ولو أن الامساك تغلب على ضده حتى

اضمحل فيه لامسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية مثلا والالبسة فيضر ببدنه ولم يوف بحقوق مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده أوفى التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدي به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفاسد البخل التي لا تنحصر ، ولو تغلب البذل لانفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيراً لا يجد ما ينفقه في ألزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي وسط لطرفين متضادين لا بد من ظهور اثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا محالة، وينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية، ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك. وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس يقع أيضاً بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم وتقلدها بعاداتهم أو باستماع اغواء ذوي الاهواء وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة المذيعين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة فللنفوس علل وامراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة الابدان كما بينا

فالحكماء العاملون القائمون بأمر التربية والارشاد وبيان مفاسد الاخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة الكمال بمنزلة الاطباء. وكما لزم

للطبيب أن يكون عالما بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والارواح اذا رقى منبر الارشاد ان يكون عالما بتاريخ الامة التي قام بارشاد ابنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضاً وان يكون مطلعاً على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع الازمان وأن يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وانه حديث أو قديم قوي في النفوس أو ضعيف وما هو العلاج اللائق بكل صنف

وكما أنه يجب على الطبيب البدني ان يكون على علم تام بمنافع الاعضاء وغايتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالما بمنافع الاخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر والواقع .

وكما يلزم ان يكون الطبيب شفيقاً رحيما صادقا أمينا لا ينظر الى الدنايا ولا ينحط الى المقاصد السافلة كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم أولى مقاصد عالية لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ولا بالقرب والتزلف الى الامراء والكبراء. أولئك هم المرشدون الحقيقيون، فان رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزئت بمطببين لا أطباء بان صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء والسفلة والادنياء، فأنذرها بالعناء والشقاء، فان المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم انها فضائل ويغرس فيها جراثيم الشر باسم انها أصول الخير ولربما كان مقصده حسناً ولا يريد الا خيرا ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ، ويبعده عن اتخاذ وسائله

فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فان ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له ان يلجه، وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستتر تحت نقع الرذيلة واعتقد ذلك ظلا ظليلا فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل، فلا ريب اذا كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم. وكذلك ان كان خائناً أو دنيئاً ينحط الى سفاسف الامور أو عديم الشفقة الانسانية فانه يتخذ النصيحة سلما للوصول الى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكدرت، ارتقت الآداب أو انحطت، صحت الارواح أو اعتلت، فيكون آلة بيد الاشرار وذوي الاهواء يستعملونه في فساد الأمة والعشيرة لقضاء أوطارهم

ألا وان القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين: قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد، فان كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والاجلال، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وابناء جلدتهم، والا استحقوا الرفض والطرد والابعاد ووجب على كل من يهمهم أمر الاصلاح أن يقذفوا بهم من البلاد كيلا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر على المبتلي بل يتعداه بالسراية الى كل من سواه » اه　　(الموسوعات)